الإيديولوجيا والوعي الزائف
(دراسة في بيان أوجه التداخل ما بين الإيديولوجي والمعرفي)

الاستاذ المساعد الدكتور
محمد عطوان
جامعة البصرة/كلية القانون والسياسة

مُلخّص

نتناول في هذه الدراسة تاريخ تطور الإيديولوجيا، باحتسابها بنية فكروية مثالية أو طريقة مُتخيّلة يزاول الناس فيها تجربتهم الحياتية الواقعية، فكانت فكروية فقط لاتصالها بظواهر الوعي، وبما له علاقة بالواقع الاجتماعي.. لكن الإيديولوجيا مثلت أيضاً وجهاً سلبياً من وجوه الوعي، الذي سُمّي بالوعي الزائف عندما عبَّرت في ذلك عن صور السيطرة والاستغلال، وأخفت أصل التعارضات داخل بنية النظام الاجتماعي، فكانت بنية لغوية يجري بث علاماتها في الجسد الاجتماعي بوساطة جهاز إيديولوجي دولاني، مبتعدة بذلك عن أصل اعتبار ما يجري وقائع صراعية مرتبطة بعلاقات وقوى وأنماط إنتاج تحكم واقع الطبقات الاجتماعية.

Ideology and the False consciousness

Asst.prof Mohammed Atwan

University of Basra. College of law

Abstract

*In t*his study we deal with the history of development of ideology as an ideal intellectual structure or as an imaginary method in which people live in their real experience. It was just intellectual for its contact with the consciousness phenomenon and what have a relation with the social reality. However it represented a negative aspect of the consciousness called the false consciousness when it expressed the representations of hegemony and exploitation and hided the origins of the contradictions into the structure of the social reality. It is a linguistic structure whose signs are spreading in the social body by an ideological apparatus ,hiding the fact that social events are the result of ideological struggles underlain by modes and means of production.

المقدمة:

بسبب تعدد المدارس الفلسفية التي تناولت مفهوم الإيديولوجيا، وتباين مدلولات اللغات المختلفة، وتمايز الأبنية الثقافية والطبقية للثقافات؛ أصبح يصعب تقعيد مثل هذا المفهوم في إطار دلالي جامع، فينصرف تعريفه بداهة إلى أكثر من دلالة ومعنى، وهو بذلك بحثٌ في موضوع غير مُجمع على تناوله بصورة واحدة. وبقدر ما يقود البحث العِلمي إلى إيجاد تعريفٍ محددٍ ومقنن للإيديولوجيا، تظهر تعريفات أخرى متنوعة لا عدّ لها.

لذلك لَزمنا الوقوف على تعريف بيّن وشائع لمفهوم الإيديولوجيا، سواء أكان تعريفه بمنظور طبقة اجتماعية أم بكتلة قومية، فلكل منظور أنظمة معرفية دينية وأخلاقية وفلسفية. وهي أنظمة من طبيعة يعسر إخفاء جوانبها الإيديولوجية مهما حاولت إبراز ما هو عِلمي في إطار الواقع، وعلى ذلك ينصرف عملها إلى التقليل من توظيف الإيديولوجي في بنائها لجهة ما هو معرفي. وفي هذا السياق، تروم الدراسة إلى تقصي المسار التاريخي لمفهوم الإيديولوجيا عبر تحليل مآلاته، والتعرّف إلى صلته بالواقعي وبالمعرفي والعِلمي، وإلى ما يسمى الوعي الزائف الذي يُحال قدر كبير منه إلى ما هو إيديولوجي غالباً، ومن ثم متابعة آليات السلطة المهيمنة التي تصنع من الإيديولوجيا أطراً محدّدة للمشروعية.

أولاً: مفهوم الإيديولوجيا

ثانياً: الإيديولوجيا وعلاقتها بالوعي الزائف

ثالثاً: دور الوعي الإيديولوجي في التاريخ

رابعاً: الأطر الإيديولوجية المؤسِّسة للمشروعية

أولاً: مفهوم الإيديولوجيا

مر استعمال مفهوم الإيديولوجيا بمعان متنوعة ومتضايفة من لغة إلى أخرى، ومن ثقافة إلى أخرى، وبحكم محاولات ترحيله لغوياً أصبح المفهوم مُستعمَلاً من جميع اللغات الحية. فعرَّفه الفرنسيون بأنه عِلم الأفكار، لكن لم يستقر على معناه اللغوي ذاته، فاستعاره الألمان وضمنوه معنى تأويلياً دالاً على القلب والتزييف[١]، ثم جرى تناوله في الفرنسية من جديد، وأُعيدَ النظر في الوظيفة التي كان يؤديها، فأصبح غريباً على لغته الأصل. ويشير العروي إلى صعوبة تحديد معنى قار لمفهوم الإيديولوجيا بقوله: "ليس غريباً أن يعجز الكُتّاب عن ترجمته بكيفية مُرضية"[٢].

وفي الواقع كثرت تعريفات الإيديولوجيا وتنوعت اتجاهاتها تبعاً للمجالات المعرفية التي تتحرك في ضمنها، فظهرت تعريفات تُشدِد على الجانب الفلسفي المُنتِج للإيديولوجيا، وأخرى تهتم بالمضامين الاجتماعية، وثالثة بالأبعاد النفسية. فتلونت مشارب التعريف وأصبحت تتحدد بعقيدة أصحابها، ونظرتهم للحياة والإنسان، وموقعهم من القيم المادية والروحية. ونتيجة لذلك صار من المتعذر الاتفاق على تحديد ماهية الإيديولوجيا، لاسيما إن المفاهيم المتعددة حول ما هو عام تجعل كل مفهوم يختلف عن الآخر.

والمُلفت في ذلك أن واحدة من مشكلات تعريف الإيديولوجيا توصيفها من وجهة نظر إيديولوجية! وتناولها انطلاقاً من مرجعيات محافظة أو ليبرالية أو ماركسية. ومهما قيل عن صلة هذه المرجعيات بالعِلم فإنها مع اعترافها بنفسها كايديولوجيا لا تعترف بإيديولوجيات أخرى[٣]. إن التعدد في أشكال استخدام الإيديولوجيا وتضمينها في كتابات جمة، يُبدِد مضمونها المعرفي الذي يجعل من أطروحتها دالّة وفاعلة في بناء تصورات ومواقف واقعية[٤].

لقد نشأ مفهوم الإيديولوجيا في سياق الصراع البرجوازي ضد الإقطاع والمجتمع الارستقراطي التقليدي في القرن الثامن عشر، وفُهِم فهماً سلبياً على يد نابُليون بونابرت، لمَّا واجه الأخير معارضة بعض الفلاسفة لتطلعاته الإمبراطورية فوصَفهم بالإيديولوجيين[٥]. لذلك اصطبغت الإيديولوجيا بصبغة سلبية في علاقتها بالواقع، شأنها في ذلك شأن كلمة النظري واللا عملي. فبدا معناها لا يملك صلاحيةً فكريةً بالنسبة لوجهة نظر الخصوم، كما إنه ليس واقعياً لجهة الممارسة الفعلية، أو ليس واقعياً بالنسبة للأمور المتجسدة في الواقع السياسي على سبيل التحديد.

يذهب أغلب التعريفات إلى أن الإيديولوجيا كلمة لاتينية مشتقة من ideal أي المُثل أو المثال، وعند النسبة فهي تعني المثالية أو الطريقة المُتخيّلة التي يزاول الناس فيها تجربتهم الحياتية الواقعية. أي إنها التمثيل المثالي لعملية مادية[٦]. فهي، بهذا المعنى: ناتج تكوين نسق فكري عام من التَمثُّلات يعمل على تفسير الطبيعة والمجتمع والفرد بصورة دائمة[٧]. ويُحفِز إلى هدف مرسوم في

مسيرة التاريخ العام. ويصفها البعض بـ "الفكروية" لاتصالها بظواهر الوعي، وبما له من صلات واقعية اجتماعية تكوّن نسقاً من المعتقدات والمفاهيم والأفكار الواقعية والمعيارية على حد سواء. وعبر هذا النسق تُفسَر الظواهر الاجتماعية المُعقّدة بمنظورات تتمايز من فرد إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى[٨]. فتُدرِك الجماعات القومية أو الطبقات الاجتماعية علاقاتها بشروط وجودها، وتُقدِم تمثيلاتها عن الواقع بصيغة قِناع[*].ويُخفي مثلُ هذا القناع أو النسق المُتّبع أساساً مادياً مُعيّناً، تكون التمثيلات فيه على هيأة آراء أو مفاهيم غرضها إبراز قيمة أهداف جماعية معينة وتسويغها.

وفي الغالب تُحدِد الفرضيات العِلمية موقفها من الإيديولوجيا، ومن وجهة نظر ابستمولوجية يتعذر على مفهوم الإيديولوجيا بلوغ كنه الواقع الموضوعي على نحو ما يسعى إليه الفكر العِلمي، بخاصة عندما تُؤوَّل شروط الوجود المُعقدة لجهة ما هو مثالي. فتبدو الإيديولوجيا في هذه المقايسة مغريةً من جهة علاقتها بالواقع على نحو أبلغ من التعبير عنه/ أو اتخاذ مواقف بشأنه من خلال اعتماد نظريات عِلمية صرفة، لذلك يحصل نوع من التأويل التواضعي الأداتي للعلم.

بوسعنا القول إن الإيديولوجيا تتميز عن العِلم بأن وظيفتها العَملية المجتمعية أمضى وأوقع من وظيفتها النظرية/المعرفية العِلمية. والأمثلة كثيرة على ذلك، فالاشتراكية الماركسية تصف نفسها بأنها اشتراكية عِلمية، لكنها تظل إيديولوجيّة في مقاربتها العَملية مع الواقع. ذلك إن أية فكرة ضمن هذا السياق تُصبح ذات طبيعة إيديولوجية عندما ترتبط بالحركة الاجتماعية مهما أشاعت التزامها بالمنهج العِلمي ذي المقصد النظري السياسي، وعلة ذلك في إن "الرؤية الإيديولوجية والرؤية الواقعية نوع واحد، حتى لو تضمنت الرؤية الأيديولوجية في البدء وفي التصور مواداً واقعية وعِلمية"[٩]. لهذا السبب يحاول العِلم إدامة مشروعيته برفضه أن يكون إيديولوجيا، ويسعى لأن يُحدِد ميدانه خارجها، من منطلق إن العِلم: "ليس الشيء نفسه صار أكثر حقيقية، إنما هو شيء آخَر غير الإيديولوجيا"[١٠]. والعِلم إذ يفعل ذلك؛ فإنه لا يُلغي ميدان الإيديولوجيا ولا شرعيتها، بل يستقل بنفسه عنها في دراسته التجريبية ومقاصده المعرفية، ويترك لها ميدانها الاجتماعي والسياسي من دون أن يضيره أن تُصبح جزءاً من نظام عقل الواقع[١١]. وإن كانت نظرية الإيديولوجيا في تجسيد الواقع وتأسيس نظامه ليست مما يتطلع إليه العِلم غالباً.

لذلك تنبع مشروعية العِلم من خلال بلوّرة نظام اجتماعي ما، لكن بلوّرته لا تلقى قبولاً وافياً مقارنة بنظام اجتماعي آخَر يُبتنى برؤى إيديولوجية مغرية، لمَّا تُمارِس الإيديولوجيا ـ بحسب التصور الماركسي ـ وظيفة قلب الأشياء والأفكار على رؤوسها، فتقرأ الواقع بخلاف ما يقرأه العِلم. يقول جان مولينو: لا يعكس العِلم الواقعَ ولا يعيد تمثيله ولا يدّعي قول "الحقيقة" كاملة إذا ما قيس بما تصنعه الإيديولوجيا.. ما يعني أن العلوم الاجتماعية تُقدِم تمثيلاً مُحدَداً للوجود

الاجتماعي[١٢]، أما الإيديولوجيا فتعمل على تعويض النقص أو الفراغ الحاصل في الواقع بابتداع تمثيل الحقيقة أو صورة عن الحقيقة توحي بتماميتها عبر سلب النقص عنها (= صورة الحقيقة)، فتبدو أقرب ما تكون إلى التخيُّل منه إلى الحقيقة.

ومن الممكن بيان ما كانت تصنعه الإيديولوجية العربية وهي تُقدم الأسانيد العِلمية المعبّرة عن أصل الميل إلى العروبية، ومم تشكلت كينونة الأمة العربية، رغم إدراك وجود عوامل انقسام وتنافر بين مكونات هذه الكينونة، سواء على صعيد الوحدات السياسية المنشئَة حديثاً (الدول) أو على صعيد الطبقات، أو حتى على صعيد الثقافات الفرعية، ولكن هذه الإيديولوجيا كانت تتقصد التخفيف من حدة عوامل النفور لتعطي فرصة أكبر لتحقيق ما تعتقد انه يشكل أهدافاً ممكنة ومشروعة للجماعة العربية ككل.

وفي هذه المعادلة كانت الإيديولوجية العربية تحاول التركيز على فاعلية التخيّيل في تمثيلها لصورة الاجتماع العربي، وتسعى إلى تكثيف ذاكرة الجماعة العربية، لتَحصيل مشروعية امتلاك رأسمالها عبر إزاحة ما هو عقلاني من حقلها المُقترح، مقابل استدعاء ما هو مُتخيَّل، وما من شأنه أن يمثل علائق سوسيولوجية متحكمة بذاكرة الأفراد والجماعات، فتكون في هذه الحالة بمثابة "نسق من الأفكار والتمثيلات الجماعية المُتضمنة صور الوهم والزيف"[١٤]. وكما يبين التوسير Althusser ذلك بأن "الإيديولوجيا تعمل على وضع الذات في علاقة مُتخيلة imaginary مع الشروط والأحوال الواقعية للوجود"[١٥].

وينطبق مثل ذلك أيضاً على الماركسية العربية التي كانت تَصوُّراتها ـ المستوحاة من واقع مجرد ـ تفوق قراءة الواقع بصورته العينية، في محاولة منها لخلق طبقة وليس قيادة طبقة موجودة في الواقع[١٦]. وإن هذه القراءة المجردة أوكلت للحزب السياسي أو للحركة السياسية مهمة صناعة الواقع، وهذه مفارقة إيديولوجية تُستعار فيها صورة الماركسية لتمثيل واقع غير واقعها. فأسفَر الانتحال السطحي الميكانيكي والمقارنات التاريخية عن تزييف الواقع، واستبدال الرؤية العِلمية الصافية للواقع برؤية إيديولوجية، ما أدى في النهاية إلى الوقوع في عقائدية كلية حوّلت حركة الطليعة/النُخبة من مجرد أداة بيد الجماهير إلى وصي عليها.

ولعل التعدي على ما هو عقلاني يثير الشكَ في مضامين الإيديولوجيا، وفي ما له صلة بأصول الأفكار والتصورات التي تُبتدَع، وهو ما يثير على نحو دائم الشكَ في صدقيتها. فعندما تنحو الإيديولوجيا بصياغاتها "المعرفية" منحى استعمالياً سالباً، يحصل من منظور كولردج؛ نوع من الشك قبل أي شيء، وعندما يُوجِه صناعُ الخطاب الإيديولوجي سرودهم صوبَ متلقين متشككين

(= وهم مستهلكو الإيديولوجيا) لا يُنتظَر منهم (= صُناع الإيديولوجيا) ما يسردونه حسب، بل إثبات صحته[١٧]. لذلك يقول أدورنو عن غياب الثقة في مضامين الإيديولوجيا ومخرجاتها: "إن الأسئلة تُثار في الأحايين التي تكف فيها المعايير عن أن تكون بيّنة"[١٨]. ومن خلال ما يذهب إليه فوكو: فإنه يصبح من المهم البحث عما هو خفي ضمن علاقات السلطة، وتَقصّي ذلك إلى حدود البنيات التحتية الاقتصادية، ثم تتبع هذه العلاقات لا في أشكالها المتعلقة بجهاز الدولة فحسب، بل في واقعها المادي؛ أي في ما هو كامن تحت جهاز الدولة[١٩].

إن السعي لتمثيل أفكار ما، يُعتقَد أنها واقعية أو أثبتت صحتها في الواقع يُعد أمراً نسبياً، عندما يصبح متعذراً على أية ممارسة تمثيلية تعريف طبيعةَ ما هو حقيقي وواقعي، وعلى هذا الأساس يقال إن الإيديولوجيا لا تملك مرجعيات محددة بعينها، ذلك انه لا يمكن أن يُرَد بناؤها إلى فاعل واقعي واحد محدّد للتحقق من صحتها، ولا بد في ذلك من العودة إلى أصول منتجيها الكثر في ظرفيات متعددة. مثلما يتعسر علينا وضع الإيديولوجيا في موضع محدد، عندما ندرك إنها تتغلغل في التفاصيل الاجتماعية المعقدة، وتُنتِج أنماطاً من الفكر والسلوك، وهو السبب الذي يتعذر فيه تحديد الواقع غير الثابت، والمتعدد الوجوه، ما يلزم إعادة النظر فيه مِراراً. وبحسب مانهايم: "تلجأ الجماعات والطبقات المتصارعة ضمن بنية اجتماعية إلى تمثيل الواقع في أفكارها وأفعالها، فيبدو الواقع بصورة مختلفة لكل منها"[٢٠]، وعندئذ يتحدد الاختلاف في زوايا النظر لدى الجماعات المتعارضة، تبعاً لاختلاف تصوراتها في مسار معرفة الواقع وإدراكه، أو إيجاد مقاربة ذهنية له.

ثانياً: الإيديولوجيا والوعي الزائف

مع تطور المجتمع البرجوازي واتساع الرأسمالية، وبفعلهما؛ بدأ الأخذ بنموذج النقد البرجوازي للميتافيزيقا والدين، لذلك طورَ ماركس تصورهُ للإيديولوجيا عندما ناقش صور السيطرة والاستغلال، وبأثرها لم تعد الإيديولوجيا عِلماً، إنما نوعاً من الوعي الزائف الذي يواري التعارضات داخل بنية النظام الاجتماعي[٢١].

ولمّا كانت الإيديولوجيا تستدعي بوساطة المُتخيَّل جملة الأقوال الفكرية الرمزية المُكثَفة التي تحاكي الواقع الاجتماعي، فإنها ـ بناء على الموقف الماركسي ـ تمتنع بداهة عن كشف حقيقة ما يتضمنه ذلك الواقع. ولأن الأقوال رموز كما يصفها اللغويون، فإنها "لا تحمل حقيقتها فيها، بل تستر حقيقة باطنية، وفي هذا الستر ذاته تومئ إليها، وبتأويل ذلك الإيماء يمكن الكشف عن الحقيقة المستورة"[٢٢]. ومن خلال عملية التأويل تُستَشَف الحلول المُرشّحة من بين خيارات

متعددة لبلوغ مضمون الـ "حقيقة". ولا تخضع الأقوال الإيديولوجية للمضمون الذي من المفترض أنها تحمله، لأنها: "تنتمي إلى بنى مثالية خاصة بها تندرج ضمن علاقات شبه معقولة"[٢٣]. وتُصبح مثل هذه العلاقات معقولة عندما تبتدع نظاماً تأويلياً عن الواقع، وهو ما عبر عنه ماركس صراحة في أطروحته الحادية عشر عن فيورباخ بقوله: "إن الفلاسفة اكتفوا بتأويل العالم بينما كان المطلوب تغييره"[٢٤].

وفي معرض رده على إيديولوجيا الهيجليين الشباب، الذين اعتقدوا بأن الوعي يُنتِج العالم، وأن كل ما هو عقلي هو واقعي بالضرورة؛ أعلن ماركس إن المصدر الواقعي للفعالية البشرية يكمن في الممارسة وليس في الوعي، أي من منطلق الفعلي وليس القدسي، لأن طبيعة الأفراد الواقعيين تعتمد على الأحوال المادية التي تقرر إنتاجهم، فتصبح مسألة الإيديولوجيا عند ماركس تمثيلاً للواقع وليست ممارسة واقعية[٢٥]. وبالتالي يجري التعامل مع الظواهر الطبيعية الخارجية بإدراكها داخلياً، عبر تقرير فكرة عقلية عنها، وهي الفرضية البيكونية التي تنقل الواقع الخارجي إلى الداخل. غير أنه يصبح وضع عالم من التمثيلات حيال عالم من البنى الواقعية عملاً مخاتلاً ومداهناً، طالما أن معكوس الشيء لا يُعقل أن يكون الشيء ذاته، ولا تمثيل الواقع يُعقل أن يكون الواقع عينه[٢٦]. ربما أسبغ ماركس على الإيديولوجيا تصوراً تبخيسياً، وعبَّر عنه بما تَنتِجه من صور الوهم. والعلة في ذلك كما يقول بيكون: "التفكير غير العقلاني.. وغير النقدي، الموروث عن عهد الاستبداد"[٢٧]. هكذا يُصبِح كل فكر إيديولوجي فكراً محضاً عندما يوضع قِبال الممارسة الفعلية، وعندما يدّعي ملكيته للواقع. ومن ثم يصبح النشاط العملي في الأخير هو الطريق الوحيد الموثوق به[٢٨].

إن إخضاع الإيديولوجيا لما هو منطقي وتمتين صلة ما هو منطقي بالواقعي، عبر سحب التمثيلات العقلية على الواقع، يُنفي حضور الإيديولوجيا، وما الأخيرة سوى رزمة أفكار فارغة، يتحدد مصيرها في العالم المادي، فيظل مفهومها مرتبطاً ارتباطاً وظيفياً بمفهومي المجتمع والتاريخ، ويتحدد (= مفهومها) بدلالة بُعده أو دنوه من المجتمع والتاريخ على السواء، وإن عمله لا يتحفز إلا من خلال تعبيراته وتمثيلاته للواقع الاجتماعي. وحيث أن الواقع الاجتماعي نتاج سلسلة تحولات تاريخية مُعقدة فإن غياب المعرفة الدقيقة به يقوض المضمون المعرفي للإيديولوجيا.

وعندما توصف الإيديولوجيا بأنها نظامية في بنيانها، فإنها تكون نظامية بطريقة ما تجعلها عاجزة عن إعطاء وصف صريح لنفسها، إنها "تجد صعوبة في تقديم توصيف لطريقتها في التفكير"[٢٩]. الأمر الذي يبقي فيه الإيديولوجيين على مسافة ذهنية تأويلية تقترح وتفترض وتتوقع قراءة عن الواقع. ولمّا كانت الإيديولوجيا تُنتِج أفكاراً بديلة عن الواقع، فإنها تُصبح جسراً يمكن الناس من العبور في حياتهم اليومية، فترتفع مثل هذه الأفكار إلى مستوى المُثل. ولذلك يقول

دوبريه: تبلغ أية فكرة من الأفكار الاستحقاق السياسي بفعل قدرتها الغنائية أو الإيمانية[٣٠]. وهكذا تكون متطلبات ما هو عِلمي شديدة الصعوبة، لذلك نلاحظ ريكور: "يحيل قدراً كبيراً من الحياة إلى ما هو إيديولوجي"[٣١]، من منطلق أن وجود الإيديولوجيا يغطي اللبس في الواقع، مثلما يمحو التعارض الذي تثيره الأسئلة الواقعية.

في المقابل فإن بناء الإيديولوجيا لا يمكن تصوره في الواقع إلا لأنه يعتمد على قراءة الواقع أو تقديم مسببات لقراءته سعياً لامتلاكه. وحيث أن قراءته تواجه تحديات مادية، فإنها (= أي القراءة الإيديولوجية) تتورط في تنميطه مسبقاً. ولا مراء أن تكون الإيديولوجيا ـ كما أسلفنا ـ فكراً نظرياً يغتني ويتطور عبر الواقع الاجتماعي والاقتصادي بأهمية كبيرة، إلا أنه من الصعب معرفة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى تنميط ذلك الواقع[٣١]. ما يعني أن الوقائع الاجتماعية هي التي تُسهم في تحديد ما هو إيديولوجي. وفي هذا المعنى أيضاً، يتعذر على جماعة تملك وعياً يحظى بالاعتبار أن تصنع لها أتباعاً من النابهين عبر تمثيلات إيديولوجية أو توسطات، إذ يعوز مثل هذا الوعي الكثير لكي يتخطى عتبة تجسيد الواقع واستيعابه، هذا إذا ما علمنا أيضاً أن القوى المحركة للواقع تظل متخفية أو من الصعب الإحاطة بكُلّياتها، ولو أنها لم تكن على هذا النحو لما أصبحت العملية إيديولوجية.

هكذا يحاول الفكر الإيديولوجي الإحاطة بتلك الكُلّيات عبر إنتاجية تمثيلية ذهنية شبه ذاتية، أي عبر نمط فكري مسبق يوحي بنتائجه لا بمسبباته. ويعني ذلك أن الإيديولوجيا تعمَل بأدوات ذهنية تُؤخذ على أنها نتاج للفكر من دون عناية بما إذا كان ما توصلت إليه أصلٌ آخر أبعد وأكثر استقلالاً من الفكر ذاته. يقول ميشيل فاديه: "إن كل فعل بشري يتحقق بوساطة الفكر يظهر كأنه قائم على الفكر"[٣٢]، وبالتالي يملك حججه في الإحالة وآلياته في التحليل، ويظهر كما لو أنه يبدو للوهلة الأولى متماسكاً من الناحية النظرية.

ولعله من خلال تطبيق المنظور الماركسي الذي طوَّره ألتوسير يبدو أن لا صلة لتمثيلات الإيديولوجيا بالوعي، فالتمثيلات ليست سوى صوراً أو موضوعات ثقافية تؤثر على البشر عبر عملية لا واعية يجهلون مدلولها. وإن الناس بحسب التوسير؛ "لا يُعبّرون في الإيديولوجيا عن علاقاتهم مع ظروف عيشهم، إنما يُعبّرون عن الكيفية التي يُنشئون فيها علاقاتهم مع تلك الظروف"[٣٣]، وعبر تَصوُّرات وتَخيُّلات أو تأويلات تُنتِج لهم أطراً علاقاتية مشروعة. لذلك تكون الإيديولوجيا ها هنا غير مطالبة بتقديم ما هو صائب في الواقع، إنما تصنع تبويبات ومسالك لتصريف فاعليات الأفراد العملية، فيطورون عبرها لأنفسهم أطراً للتشريع تعينهم على فهم العالم المادي.

لذلك نكون أمام فرضية ترى أن الأفراد يُعبّرون عن علاقاتهم بالعالم الذي يصنعونه هم لأنفسهم، فيُقال إن نواتج أدمغة البشر خرجت عن أيديهم، معتبرين أن البشر هم من يصنع المعارف في آخر الأمر[٣٤]. لكن محاولة تكييف الواقع أو تزييف الخبرة فيه: تفضي إلى وعي زائف وإلى نوع من المخاطرة عندما تُظهِر طبقة ما أو سلطة طبقية تصوراً إيديولوجياً متعارضاً مع ما يقابلها من تصورات طبقية اجتماعية أخرى. فتتعمد مثل هذه السلطة (سلطة الطبقة) الإبقاء على تصور يغطي الواقع أو يخفيه، أو أنها تتستر على صور وأشكال السيطرة الطبقية التي ربما تخفي أيضاً "أشكالاً أخرى من القهر العرقي والعنصري في طرق الإنتاج"[٣٥]. في هذا المعنى، تُمارس الإيديولوجيا تمويهاً يخفي حقيقة ما يضرُ إظهارها بمصالح صانعي الإيديولوجيا.

ثالثاً: دور الوعي الإيديولوجي في التاريخ

يُلاحَظ مما تقدم أن الإيديولوجيا اصطبغت بصبغة التزييف وبأشكال التفكير غير العِلمية والحيادية، إلا إن غياب مضمون الحيادية لا يعدم وجودها والعمل بفحواها[٣٦]. ولابد من تثبيت المضمون الوصفي للإيديولوجيا في تعاملها مع الواقع، فتصبح حيادية فقط خارج توظيفها السياسوي، أي؛ عندما تُنظِم المعارف في أنساق تداولية، وعندما تساعد في شد أواصر الجماعات وصياغة معتقداتها الملائمة لضمان لُحمتها[٣٧]. وعبر هذه الطريقة يمكن للإيديولوجيا أن تتخذ معنى يتغيا منهجاً أقرب إلى ملامسة شؤون الواقع، عبر تغليف الواقع بقشرة رقيقة من الحياد والموضوعية والمنهجية المنطقية الصورية واللغوية أحياناً، ويمكن بوساطة هذه المنهجية للأفكار أن تُحدِد بشكل عِلمي استخدام ما هو عقلي في إدارة شؤون الأفراد والجماعات.

لاحظنا في ما سبق أن الإيديولوجيا تتعالى على ما هو عِلمي، ويتسع مفهومها لا ليغطي تزييف الواقع، بل كل تمثيلات الواقع، لكنها تبقي على صورة محايدة في وظيفتها أيضاً، وعلى سبيل المثال تصفُ الشيوعيةُ الشرقية - في أوروبا - الإيديولوجيةَ الشيوعية كمضاد للإيديولوجية البرجوازية، ما يدل ذلك على أن مجتمعاً ما في زمن محدد يملك أفكاراً خاصة به، يصنعها بنفسه ولنفسه، ويصبح عالمه هو "مبدأ وضوحه الخاص"[٣٨]. وبهذا المعنى الحيادي، تبتعد الإيديولوجيا عن كونها عِلماً لتوليد الأفكار الصائبة أو الزائفة، فتكون نظرية عامة على الأرجح، تبحث في كيفية استلال الأفكار من الأساس الاجتماعي المادي وفي تنظيمها وتوجيهها.

كما ليس مُحالاً أن تشيع الإيديولوجيا توجهاً جديداً حيادياً لفهم الحقيقة الاجتماعية أو السياسية، وأن تطرح تفسيراً مُنظَماً لِما هو موجود وما هو مطلوب (وأشدد هنا على ما هو عياني موجود ومطلوب). يقول ريمون آرون: "إن أي سرد فلسفي يمكن أن يُسمى إيديولوجيا"[٣٩]. إذن،

ليس لمصطلح الإيديولوجيا إيحاءات سلبية بالضرورة، وهو التوصيف الأولي لها. مع ذلك فإن مصطلحها غالباً ما يوضع مقابل ما هو مادي أو واقعي.

والواقع أنه من الصعب الفكاك من أسار الإيديولوجيا، وبالرغم من الطابع المتسق والمُنظَّم والموضوعي للفكر النظري المغاير لما هو إيديولوجي، فإن مثل هذا الفكر لا يخلو تشكله الجوهري من عناصر إيديولوجية أيضاً، بسبب؛ "مشروطية أدواته المعرفية الإنسانية، ومشروطيته السياقية والظرفية التي تضفي عليه بالضرورة ـ رغم صحته الموضوعية ـ طابعاً نسبياً في الإطار التاريخي العام"[٤٠]. في غضون ذلك يتعذر تصور وجود للتاريخ من دون شرطه المادي، ولأن الإنسان دائم الممارسة؛ فإنه يُحكَم بالمحصلة على نتائج أعماله، وبالحكم على تلك النتائج يُحدَد مدى مطابقة أفكاره للواقع[٤١].

على سبيل المقاربة تؤكد الماركسية على ضرورة ربط النظري بممارسة اجتماعية ثورية (البراكسس عند لوكاش) لإدارة موضوعات الصراع. ويتم ذلك عملياً عبر تقويض سلطة الأفكار الزائفة ضمن نظام اجتماعي، أي تقويض سلطة ما كان يشوب الإيديولوجيا. لقد نظر ماركس وأنجلز إلى إيديولوجية طبقة البروليتاريا بوصفها: "المعتقدات المتعلقة بالمجتمع وبمسار التغير الاجتماعي التي تنهض بمصالح هذه الطبقة.. وعبر تفهُّم البروليتاريين لمصالح طبقتهم، فإنهم يتمسكون بهذه المعتقدات ويرون أنهم الطبقة التي تستوعب مسار التغيير الاجتماعي وتسمو على الوعي الزائف"[٤٢]. لذلك أُريدَ للنظريات التي طورتها البروليتاريا أن تتسم بطابع "العِلمية"، لأجل مواجهة النظريات البرجوازية التي اعتبرها ماركس مرتبطة بالوعي الزائف، وبحسب النظرية الواقعية فإن لينين عدّها جزءاً من مجموعة نزاعات الصراع الطبقي[٤٣]. وبذلك تعبر عن طليعيتها بتمثيل الوعي الطبقي والميولات الطبقية تمثيلاً معرفياً نظرياً يقترب من حقيقة الواقع الاجتماعي.

لكن بما أن معايير المجتمعات نسبية بطبيعتها فإنه يصعب العثور على أصل ثابت يشيع الحقيقة دائماً، وإن ما يمكن أن يكون حقيقياً هو دائم التغير بالضرورة، وإن الأصول تَبتدِع تصوراتها على الدوام وتدحضها أيضاً. لا يوجد عِلم مُطلق، وليس بمقدور الإيديولوجيا ـ بوصفها شكلاً من أشكال المعرفة ـ فهم العالم الفعلي[٤٤]. كما ليس هناك مغزى للتاريخ، ولا معنى لتاريخ حقيقي تُعرّفه علامة إيديولوجية، بل لا يوجد تاريخ للإيديولوجيا. بالمعنى التبسيطي. إذا اعتبرنا أن الإيديولوجيا ليست ظاهرة تاريخية، وإنها ليس سوى ميلاً مطبوعاً في الذهن البشري الذي لا يستطيع أن يتحمل الكثير من الواقع[٤٥]. لذلك، فإن ما يتعين اتخاذه مرجعاً تاريخياً ليس الأنموذج الأكبر للغة أو العلامة التي تعمل عليها إيديولوجيا ما، بل أنموذج الصراع، وإن اللغة ليست سوى نسقاً شكلانياً(٤٦)، وبالتالي يكون أصل اللغة فعلاً من أفعال السلطة يصدره أصحاب الغلبة

والهيمنة المتصارعون. وهو بعبارة أخرى جزء مرتبط بمفهومي قوى الإنتاج وأنماط الإنتاج، أو بالتفاعل بين القوى والأشكال. إذن التاريخية التي تتحكم في المجتمعات البشرية ـ طبقاً لمناهج تفسير العالم التاريخي السياسي ـ لم تكن تاريخية لغوية، بقدر ما هي علاقة سُلطة. ولأنه ليس للتاريخ معنى أو اتجاه، فإنه يُفهَم تبعاً للصراعات والاستراتيجيات والتكتيكات[٤٧].

تحاول الإيديولوجيا في هذا السياق أن تتغافل عن مسببات الصراع لتنتج قراءتها البديلة. وطبقاً لذلك لا يوجد تصور عِلمي واحد، فعند الحديث عن أصل الطبقات، يمكننا أن نقول إنه لا توجد طبقة كونية واحدة متراصة في الواقع، وعندما يكون المجتمع مجزأ إلى طبقات وفئات، يصبح ما هو كوني في هذا السياق دعوة إيديولوجية، لذلك لا سبيل هنا إلى إرجاع معتقدات الطبقات والفئات المختلفة إلى أصل واحد. يقول العروي: "إن كل طبقة وكل فئة تُبدِع منظومة فكرية تُبرِّر بها مصالحها الظرفية حسب الواقع الذي يعكسها، وحسب حدودها التاريخية"[٤٨]. الواضح في هذه المسألة هو: إن العنصر الإيديولوجي على غموضه والتباسه يصبح مقبولاً فقط عندما يؤسِس لتصور بديل عن الوعي الزائف، وعندما يجري الالتفات باهتمام إلى دور الوعي في التاريخ: الوعي المُدرِك لصلته المادية بعلاقات وقوى الإنتاج السائدة في المجتمع، والمُتجاوِز للتَمثيلات الوهمية. لكن ضمن هذا المساق العِلمي، على أهميته، يصعب إبعاد التَزييف إبعاداً كلياً، فتصبح الإيديولوجيا عند هذه الجزئية ـ تحديداً ـ العالم التمثيلي في تضاده مع الواقع التاريخي، لكنها، بالرغم من ذلك تنوجد حتى في المجتمعات المتقدمة القادرة على رصد الأسباب المُحرّكة لقوى وعلاقات الإنتاج.

مع ذلك، فإن الإيديولوجيا تبقى ضرورة، وإن الاعتراف بصلاحيتها يسمح بتقليص حِدَّتها وتوجيهها نحو معنى أقل تزييفاً. نلاحظ على مستوى التاريخ أن المادية التاريخية نفسها ما كانت لتستطيع أن تتصور المجتمع الشيوعي بلا إيديولوجيا أياً كانت أخلاقاً فناً أم تصوراً للعالم. إن إلحاق الإيديولوجيا بالوعي الزائف لم يحل دون استعمال الماركسيين أنفسهم لمسمى الإيديولوجيا الشيوعية والإيديولوجيا البروليتارية بِعدّها تدابيرَ تُتخَذ لتوحيد عمل الحزب أو الطبقة وتوجيه أفعالهم التي كانوا يسمونها نظرية لتفسير مسار التغير الاجتماعي[٤٩]. ولقد كان التوسير يفضل كلمة نظرية لهذا السبب أيضاً.

معنى ذلك أنه يمكن أن تحصل تغييرات في أشكال الإيديولوجيا وعلاقاتها في المجتمع عندما تقترب من مفهوم التصور العِلمي للعالم ومن إنتاج نظرية في الإيديولوجيا، وهذا ممكن، لذلك لا يُتوقع استغناء المجتمع عن الأشكال التكييفية الأخرى المناسبة للتنظيم الاجتماعي. ولهذا السبب بالذات، يقال: إن الإيديولوجيا "ليست زائدة تاريخية، بقدر ما أنها ضرورة"[٥٠]. إن من شأن الاعتراف بالإيديولوجيا هو السماح بالتأثير عليها ايجابياً في الأقل، ما يجعلها أداة واعية للعقل والتاريخ. ولعلها تتحول من شعار مفرغ من مضمونه الواقعي إلى معنى يُلامس المشكلات الاجتماعية

السائدة. يقول كمال عبد اللطيف: "تملك الإيديولوجيا أدواراً ايجابية عندما تتجه إلى بناء مشروع بديل للوعي الزائف"[٥١].. أي مشروع الوعي التاريخي المُدرِك للأسس الواقعية المادية، والمُتجاوز للتَمثُّلات والمعتقدات الوهمية.

رابعاً: الأطر الإيديولوجية المؤسِّسة للمشروعية

في كل مجتمع حديث يوجد ما يُطلَق عليه جهاز الدولة الإيديولوجي، ولهذا الجهاز وظيفتان، الأولى: مواءمة الرؤى الاجتماعية المُعقدة والمتعارضة. والثانية: الوصول إلى معنى من معاني المشروعية في برنامج دولة ما. وإن المشروعية هي اعتراف الناس بصلاحية نسق سياسي وفلسفي وثقافي بتأثير من رؤية إيديولوجية محددة، ويُعبِّر عن هذا النسق جهاز دولاني مُعَد لهذا الغرض، يشتغل ضمن حيثية زمنية ومكانية معينة[٥٢]. وتحقق المشروعية في: "قدرة النسق السياسي والثقافي والفلسفي على أن يتم الاعتراف به"[٥٣]. ويجري ذلك عبر صياغة منهجية تُمرِر الإيديولوجيا وتُقنِع الأفراد والجماعات بغايات ما يتوفر عليه ذلك النسق، ما يجعل عملية الانتقال من مستوى قراءة إلى آخر مُبرَّرة، وما لا يُعقل منها مدخلاً تأويلياً مقبولاً، ومن تشابكات الواقع اليومي مخرجاً تبريرياً مُتوقعاً. فتكون أية صورة أدبية من صور الإيديولوجية؛ قومية، ليبرالية، ماركسية، طائفية، مناطقية، جهوية، أنموذجاً مُمكِناً للجماعة المؤمنة به، يعفيها من تبنّي النماذج الإيديولوجية المتوفرة. لذلك تعيد كل هوية النظرَ في معطياتها بفاعلية[٥٤]. ويمكن للإيديولوجيين عموماً قبول أو استبدال كثير من الترتيبات حالما تصنع هوياتهم من تلقاء ذاتها تبريراتها وبدائلها التأويلية عن الواقع.

الذي يحصل في الواقع؛ إن التصورات الطبقية والثقافية والإثنية المتنوعة تتصارع فيما بينها ضمن نظام اجتماعي، فيعمل الجهاز الإيديولوجي في غضون عملية التصارع على احتكار مهمة تمثيل Re–presentation الكل الاجتماعي Social Whole، وصُنع "المشروعية" الإيديولوجية، وإعادة بناء نسخة ممكنة عن الواقع ومذهبته بإحكام. فبوساطة الجهاز الإيديولوجي يجري استثمار الممارسات المادية والأعراف والعادات وأساليب الحياة المتداخلة مع بنى الممارسات الاجتماعية داخل مجتمع ما، بما فيها الممارسات السياسية والاقتصادية التي تلعب أدواراً جوهرية في إنتاج تَصورات عن المِلكية والتملُّك وتقسيم العمل الاجتماعي داخل علاقات الإنتاج.

بالتالي تُشكِّل الإيديولوجيات منظومات صورية توجه الناس سلوكياً وأخلاقياً نحو تغيير الممارسات السياسية، أو للدفاع عنها عبر شعارات ورموز دالّة. ويتم ذلك عندما تتجنب السلطة السياسية ابتداع السيطرة وتوطيدها بالقمع والعنف العاري وحده، فتحاول "الاستعانة بالمذهبية الإيديولوجية لإضفاء الشرعية على استعمال العنف، وتنظيم توافق بين طبقات وأقسام اجتماعية معينة وبين الطبقات معاً"[٥٥]. إن هذا النوع الممارس من المذهبية الإيديولوجية يترك

آثاره في تضاعيف الجسم الاجتماعي. يقول فوكو: "إن ما يجعل السلطة تستوي في مكانها، ويجعل الناس يتقبلونها، ولا يعدونها قوة ناهية، هو اعتبارها شبكة مُنتِجة، تصوغ المعرفة وتستخلص اللذة عبر الجسم الاجتماعي كله، أكثر مما هي هيأة سلبية وظيفتها ممارسة القمع"[٥٦].

لذلك يكون من الضروري المقاربة بين جهاز هذه الدولة المُعبَّر عنه ضمن الجسم الاجتماعي وبين أجهزة الأسرة والمدرسة والجامع والكنيسة والأحزاب والشركات والنقابات والمنظمات الاجتماعية.. الخ. وإن الأخيرة غالباً ما تكون أجهزة خاصة ومستقلة عن الدولة، لكنها تُمكِّن السلطة من توزيع تأثيراتها بصورة متصلة وغير متقطعة، ومكيفة و"متفردة" على الجسم الاجتماعي كله. ولها تأثير سياسي أمضى من تأثير بنى الدولة السياسية بأشكالها التقليدية. على سبيل المثال، تضم كل من شركتي Siemens و BMW في ألمانيا مئات الألوف من العمال، لكنهما لا تلزمان نفسيهما بدفع الضرائب للدولة، وإن الدولة تغض الطرف عنهما، كما أن شركات النفط، وصناعات الأسلحة من صواريخ وطائرات ودبابات وسفن حربية، هي ما يحدد السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية في مسائل الحرب والسلم[٥٧]. هذه التقنيات الجديدة أو المذهبيات الإيديولوجية أكثر فاعلية وأقل تكلفة من الناحية الاقتصادية، وأكثر إصابة لأهدافها، وأقل مقاومة من قبل الأتباع من التقنيات المُستعملة سابقاً. لذلك يُفهَم بوساطة نظرية الإيديولوجيا دور الإيديولوجيا، فيتضح أن للدولة وجهين: وجهاً مادياً قمعياً، ووجهاً أدبياً تأديبياً. الوجه الثاني منها هو الإيديولوجيا الدولانية[٥٨]. وليست إيديولوجيا الدولة شيئاً ما محايداً داخل المجتمع غالباً، بل إنها تصنع تصورات طبقية، وهي بذلك قوة جوهرية للطبقة السائدة.

هكذا توضع علاقة التأثير والتأثر بين البنية الفوقية والبنية التحتية مقابل علاقة الحث بين إدعاء الشرعية والاعتقاد بها[٥٩]. فتصنع الطبقات السائدة ـ من منظوراتها الطبقية ـ قِيمَاً نظرية عامة ومشروعيات، تكون بعدئذ قيم المجتمع والواقع الاجتماعي[٦٠]. إن مثل هذه العلاقات يحيل على ما كان ينعته ماركس بـ"وعي الاستغلال المتبادل"[٦١]. لقد ظل ماركس يؤمن بأن أفكار الطبقات السائدة هي الأفكار السائدة في كل العصور، مُنطلِقاً من: "أن الطبقة تُشكِل القوة المادية السائدة في المجتمع، وهي مؤهلة لتركيب وبناء القوة الروحية أيضاً"[٦٢]. على ذلك يصبح استعمال العنف الطبقي الدولاني عبرها، مُدعَماً بقوة الإيديولوجيا، مُبرَرَاً ومُكيَفاً بأطر قيمية أخلاقية ووجدانية وتشريعية. وبوساطتها يُبَرَر استعمال العنف، ويُشحَن بمفردات تكتسي سمات رمزية "قدسية"، ودلالات إيحائية تؤسس لما سُمي "أساطير الإيديولوجيا"، باعتبار أن الأسطورة هي أحد أوجه التعبير عن الحقائق التي تعيشها الجماعات، وهو ما تذهب إليه ارندت في أن: "أجهزة الدولة والبوليس السري تقوم على الأسطورة التي تنتجها وتكونها عن نفسها، بوساطة الدعاية ووسائل الإعلام،

وتكون مغلقة تماماً تجاه الواقع المادي.. فعن طريق الدعاية يُمحى الفاصل بين الجريمة والفضيلة، المضطهِد والمضطهَد، الواقعي والخيالي[٦٣].

ولأجل أن تكون الإيديولوجيا واقعية نسبياً، يُخفَّض من نسختها المؤمثَلة بمهارة وعن قصد قليلاً، لتبدو مقبولة من الناحية الشعبية، بحيث تجعل من القيم والاتجاهات والمعتقدات السائدة محايدة وواضحة بذاتها، أو بدهية سعياً لإدامة حس مشترك أو فهم مشترك[٦٤]. ويمكن في هذا السياق معاينة عمل علاقات الهيمنة في المجال العام، عندما تدمج مجموعةُ الأفكار المشتركة والمُهيمِنة الأفرادَ في جماعة أو حزب أو حركة، وتُحدِد الأفكارُ الأشياءَ المقبولة والمهامَ السياسية والاقتصادية والثقافية التي يتم اعتناقها، وينبغي انجازها طوعياً.

بذلك تؤدي الإيديولوجيا وظيفةً تعبوية، فتخلق ارتباطاً وجدانياً بين الأفراد الذين يزدهون ويتشاركون بأفكارهم، ويفتخرون بعضهم ببعض، حيث تكون الفكرة الجوهرية في هذا الموضوع هي إن الحس المشترك للأفراد لا يمكن أن يتشكل عبر الصراحة، ولأنه لا توجد صراحة بالمطلق في إطار الإيديولوجيا فإن الدولة تنشط وتعمل بالمذهبية الإيديولوجية المسوّغة للقمع، فتؤثر بقدر ما تمارس النهي المباشر، وتحول وتعيق وتنقل بقدر ما تكذب وتزوِّر وتكتم وتحجب.

الخاتمة

خلاصة القول: إن ما ينشأ من تصورات لدى الأفراد في الواقع ـ زائفة كانت أم صائبة ـ يتأسس عبر أنظمة معرفية أخلاقية ودينية وفلسفية.. وإن هذه الأنظمة المعرفية تنطوي على قراءات من طبيعة لا صلة لها بالواقع، تعمل على تكثيف المواضيع المعرفية المتعددة والمتنوعة بإرجاعها إلى سببية فريدة، ما يتعارض ذلك مع الواقعي إن لم نقل يُزيّفه. ويُصبح تطبيق ما يُعتَقَد بعِلميته مادةً توصيفيةً لا صلة لها بما هو معرفي، مثلما هي ليست من سنخ العِلم القائم على التجربة.

وإذا توخينا طرح ما هو معرفي باعتماد مقاربة عِلمية له، فإن ما ينتج عن ذلك المعرفي بالضرورة صوراً وتمثيلات تحاول أن تُجيب عن "حقيقة" كامنة في الواقع، وعبر تأويل تأويل الواقع، فتحاول أن تحل محل العِلم في ممارسة وظيفتها التفسيرية، مثلما تحل أيضاً محل الشروط والأحوال الواقعية المُنتِجة لفكر ما، وتُصبح أكثر إغراءً من أي عارض موضوعي يواجه الناس في حياتهم اليومية. إن الإيديولوجيا في الأخير؛ العالم التمثيلي في تضاده مع الواقعي، والوسيلة المجازية التي تتوسل تمثيل الواقع، والتي لا يمكننا رؤيتها نشطة في المجتمعات التقليدية حسب، بل في المجتمعات العقلانية القادرة على كشف القوانين المُحرّكة لقوى وعلاقات الإنتاج.

المصادر والهوامش

(١) يُنظَر: كارل ماركس وفردريك انجلز، الإيديولوجية الألمانية، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٧٦، ص٣٠.

(٢) عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط٥، ١٩٩٣، ص٩.

(٣) يُنظَر: عبد الرحمن خليفة، إيديولوجية الصراع السياسي (دراسة في نظرية القوة)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ص١٠٥-١٠٦. كذلك، يُنظَر: برهان غليون، اغتيال العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط٤، ٢٠٠٦، ص١٩٤.

(٤) يُنظَر: كمال عبد اللطيف، في الإيديولوجيا والمعرفة: مدخل عام، عن كتاب: مجموعة باحثين، المعرفي والإيديولوجي في الفكر العربي المعاصر (ندوة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٠، ص٣٧.

(٥) يُنظَر: ميشيل فاديه، الإيديولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٩، ص٢٠.

(6) Louis Althusser, For Marx, Translated by: Ben Brewster (New York: 18 Pantheon, 1969), pp 231-232.

(٧) المقصود في هذا المعنى ديمومة التكون، وإلا فإن حقيقة الإيديولوجيا تُخلَق لخدمة أهداف محددة لا لتبقى مدى الدهر، ومتى ما حققت أهدافها تركت المجال لغيرها.. أي تنتهي إلى تشكل نسقي جديد. برهان غليون، اغتيال العقل، مصدر سبق ذكره، ص١٩٦.

(٨) عن: عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري، الإيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب/قسم الفلسفة، ٢٠٠٠، ص١٩.

(*) لمزيد من التفصيل؛ يُنظَر الفصل الثالث من كتاب: عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المتضمن عنوان (الإيديولوجيا/ قناع) حيث يُفصَّل كيف يجري التقنيع عند ماركس مع المصالح الطبقية، ونيتشه مع غِل المُستغِلين، وفرويد مع منطق الرغبة، ومنهايم مع الإيديولوجيا السياسية. يُنظَر: عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، مصدر سبق ذكره، ص ص٢٧.٥١.

[٩] عزيز السيد جاسم، جدل القومية والطبقة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٣، ٢٠٠٦، ص٨.

[١٠] بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٨٢.

[١١] برهان غليون، اغتيال العقل، مصدر سبق ذكره، ص١٩٤.

[١٢] عن: المصدر نفسه، ص٢٢.

[١٣] يُنظَر: المصدر نفسه، ص٩.

[١٤] يُنظَر: دانيال تشاندلر، معجم المصطلحات الأساسية في عِلم العَلامات، معجم المصطلحات الأساسية في عِلم العلامات، ترجمة: شاكر عن الحميد، مطابع المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٨٤.

[١٥] يُنظَر: حامد خليل، أزمة العقل العربي، دار كنعان للدراسات ولنشر، دمشق، ١٩٩٣، ص٢٤.

[١٦] يُنظَر: بول ريكور، الزمان والسرد، ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ج١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٦، ص ص٢٧٧-٢٧٨.

[١٧] عن: جوديث بيتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة: فلاح رحم، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٤، ص٤٠.

[١٨] ميشال فوكو، هم الحقيقة (مختارات)، ترجمة مصطفى المسناوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٦، ص٥٢.

[١٩] كارل مانهايم، الإيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ترجمة: محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، ١٩٨٠، ص١٦٤.

[٢٠] يُنظَر: جورج لارين، الإيديولوجيا والهوية الثقافية، ترجمة: فريال حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص٥٦-٥٨.

[٢١] عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، مصدر سبق ذكره، ص٤٣.

[٢٢] كورنيليوس كاستورياديس، تأسيس المجتمع تخيلياً، ترجمة: ماهر الشريف، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٣، ص ص١٧٤-١٧٥.

[٢٣] كارل ماركس وفردريك أنجلز، الإيديولوجية الألمانية، مصدر سابق، ص٦٥٣.

[٢٤] يُنظَر: المصدر السابق نفسه، ص١٣٩.

[٢٥] ريجيس دوبريه، نقد العقل السياسي، ترجمة: عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٦، ص١٥٢.

[٢٦] عن: عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، ص٢٥

[٢٧] يُنظَر: كارل مانهايم، الإيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ص١٤٣.

[٢٨] بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، ص١٨٠.

[٢٩] ريجيس دوبريه، المصدر نفسه، ص١٨٠.

[٣٠] المصدر نفسه، ص١٨٠.

[٣١] يُنظَر: اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج٢، دار عويدات، بيروت، ٢٠٠٨، ص٦١١.

[٣٢] يُنظَر: ميشيل فاديه، الإيديولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، مصدر سبق ذكره، ص٢٨.

[٣٣] عن: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الإيديولوجيا، دار توبقال، الدار البيضاء، ٢٠٠٦،ص٩.

[٣٤] لنأخذ على سبيل المثال، كيفية جعل قيم الاضطهاد المُوجهَة من قبل الجلادين ضد ضحاياهم قيماً عليا مُدعَمة بمبررات وجودية أخلاقية، فالجلادون لا يقرون بممارسة الاضطهاد، ولا يحلو لهم أن يروا الاضطهاد الذي يمارسونه على الآخرين عارياً، إنهم: "يُموهون واقعة الاضطهاد لأنهم (=ممارسو الاضطهاد) حريصون على كرامتهم الإنسانية، وإن الإيديولوجيا تتكفل بتلبية حاجاتهم الروحية إذ تعكس لهم في مرآتهم صورة مثالية عن أنفسهم لا كما هم في الواقع، إنما كما يريدون أن يظهروها في أنظارهم وأنظار الآخرين. لمزيد من التفاصيل، يُنظَر: مالك محمد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، الإيديولوجيا والسياسة (دراسة في الإيديولوجيات السياسية المعاصرة)، ج١، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، ١٩٩٥، ص ص٢٨-٢٩.

[٣٥] جورج لارين، الإيديولوجيا والهوية الثقافية، مصدر سبق ذكره، ص٦٣.

[36] See: Terry Eagleton, Ideology "Introduction", London: Longman, 2nd edition, 1994, p.2.

[٣٧] مطاع صفدي (تعقيب) على: كمال عبد اللطيف، في الإيديولوجيا والمعرفة: مدخل عام، عن كتاب: مجموعة باحثين، المعرفي والإيديولوجي في الفكر العربي المعاصر (ندوة)، مصدر سبق ذكره، ص٦٨.

[٣٨] بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، مصدر سبق ذكره، ص ص١٣٩-١٨٧.

[٣٩] عن: ميشيل فاديه، الإيديولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، ص٢٤.

[٤٠] محمود أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨، ص٢٥.

[٤١] عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، مصدر سابق ذكره، ص٤٨.

[٤٢] مالك محمد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، الإيديولوجيا والسياسة، ص٣٢.

[٤٣] يُنظَر: ريمون بودون وفرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعِلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، القاهرة، ت بلا، ص٨٤. كذلك، يُنظَر: فيصل درّاج، الواقع والمثال، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٨٩، ص٢٠١.

[٤٤] كارل مانهايم، الإيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ص١٦٢.

[٤٥] ديفيد هوكس، الإيديولوجية، ترجمة: إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٠١.

[٤٦] صادق جلال العظم، دفاعاً عن المادية والتاريخ، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٩٠، ص٣٦٦.

[٤٧] يُنظَر: ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٧، ص٦٠.

[٤٨] يُنظَر: عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، مصدر سابق ذكره، ص٤٥.

[٤٩] يُنظَر: بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، مصدر سابق ذكره، ص١٧٢.

[٥٠] عن: ميشيل فاديه، الإيديولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، ص ص٩٣-٩٤.

[٥١] كمال عبد اللطيف، في الإيديولوجيا والمعرفة: مدخل عام، عن كتاب: مجموعة باحثين، المعرفي والإيديولوجي في المعاصر (ندوة)، مصدر سبق ذكره، ص٤٥.

[٥٢] لا يقتصر توصيف الجهاز الإيديولوجي للدولة على الأجهزة المتعلقة بممارسة العنف الفيزيائي كالجيش والشرطة والقضاء والسجون، إذ تندرج فضلاً عن ذلك؛ الكنيسة بوصفها جهازاً

مذهبياً، والمدرسة ووسائل الإعلام الرسمية (الراديو والتلفزيون)، ومؤسسات إنتاج الثقافة. يُنظَر: نيكولاس بولانتزاس، نظرية الدولة، ترجمة: ميشيل كيلو، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧، ص٢٦.

(٥٣) يورغن هابرماس، بعد ماركس، ترجمة: محمد ميلاد، دار الحوار للنشر، اللاذقية، ٢٠٠٢، ص١٨٥.

(٥٤) مقابلة مع اليساندرو بيزورنو، (الهوية والفعل الجماعي)، عن كتاب: عِلم الاجتماع (من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية)، تحرير: فيليب كابان ـ جان فرانسوا دورتيه، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، ٢٠١٠، ص١٥٦.

(٥٥) نيكولاس بولانتزاس، مصدر سابق ذكره، ص٢٥.

(٥٦) ميشيل فوكو، نظام الخطاب، مصدر سق ذكره، ص ص٦٣ـ٦٤.

(٥٧) يُنظَر: ليندا هتشيون، سياسات ما بعد الحداثية، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩، ص٣٩.

(٥٨) عبد الله العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط٨، ٢٠٠٦، ص١٤٧.

(٥٩) يُنظَر: بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا واليوتوبيا، مصدر سابق ذكره، ص١٧٧.

(٦٠) تَسندُ الدولةُ العديدَ من مهامها إلى القنوات الاجتماعية الخاصة، وتصنع جفاءً حذقاً معها، لتبدو مقبولةً اجتماعياً، وتُقنِع المحكومين بمشروعيتها، فتمارس تلك القنوات الاجتماعية مهام ضبط وتلقين وتوجيه ومراقبة هي من ممارسات الدولة في الواقع، وإن كان يُظَن أن لا شأن للدولة بها. والحال، فإن ما يحصل من تداخل بين المجالين السياسي والاجتماعي يكون صنيعاً إيديولوجياً غير محسوس، وغير مُدرَك غالباً، ينشط ضمن بنية اجتماعية ما. (الباحث)

(٦١) يُنظَر: كارل ماركس وفردريك أنجلز، الإيديولوجية الألمانية، مصدر سبق ذكره، ص٤٤٦.

(٦٢) كمال عبد اللطيف، في الإيديولوجيا والمعرفة: مدخل عام، عن كتاب: مجموعة باحثين، المعرفي والإيديولوجي في الفكر العربي المعاصر (ندوة)، ص٤٤.

(63) Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism (NEW YORK: Harcourt, Brace, 1951), p294.

(٦٤) يُنظَر: دانيال تشاندلر، معجم المصطلحات الأساسية في عِلم العَلامات، مصدر سبق ذكره، ص٨٤.